مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 09 عدد: 5 السنة: 2020
ص: 918 - 931 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

الفنون النّثرية في الأدب الجزائري القديم

The Prose Arts in Ancient Algerian Literature

موسى سترة *

Moussa sotra

مخبر السيميائيات و تحليل الخطابات، جامعة وهران 1-أحمد بن بلّة/ الجزائر

Oran University 1- Ahmed Ben Bella-Algeria
Semiotics and discourses analysis laboratory
moussasotra@gmail.com

تاريخ الإرسال:2020/04/17	تاريخ القبول:2020/10/24	تاريخ النشر: 2020/12/25

ملخص البحث

تشكّل فنون النّثر الجزائري القديمة مظهرا من مظاهر التّشكيل الجمالي الأدبي، اكتسبت دورا رياديا نظرا لثرائها وتنوعها وارتباطها بأنساق ثقافية وتاريخية في الحياة السياسية و الثّقافية في الجزائر على مراحل زمنية متعاقبة. وقد قادنا الاهتمام بهذه الذاكرة الثقافية إلى الوقوف عند هذه الفنون النثرية بتعدد أنواعها: الرسائل والرحلات والسير والمقامات وكتب التراجم والشروح الشعرية... قصد عرضها ولفت الاهتمام بها في حقول البحث العلمي، إذ سنعرض بعض الأشكال النثرية الجزائرية القديمة مع تحديد نوعها الأدبي والتعريف بأصحابها مكتفين بالمحقق منها دون المخطوط. متبنين الإجراء الوصفي الّذي يتيح لنا معاينة المادّة الأدبية ووصفها. وبدءا سنتعرض بالمناقشة لإشكالية التأريخ للأدب الجزائري القديم مستندين إلى عدد من المقولات، ثم نخوض في عوامل تبلور الفنون الكتابية النثرية الجزائرية القديمة وإلى مستوياتها التعبيرية الجمالية .

الكلمات المفتاح : نثر، جزائر، رسالة، رحلة، سيرة، مقامات .

Abstract : The ancient Algerian prose arts are a manifestation of literary aesthetic formation that has gained a pioneering role due to its richness, diversity, and connection to cultural and historical patterns that have been in political and cultural life in Algeria on successive stages of time. In effect, the interest in this cultural memory has led us to stand at these prose arts of various kinds: letters, trips, makamat, biographical books and poetic explanations ... in order to display them and draw attention to them in the fields of scientific research, as we will present some ancient Algerian prose forms alongside defining their literary type and introducing their authors

* موسى سترة: moussasotra@gmail.com

though, we will focus only on the Verified and not the manuscripts. Hence, we will adopt a descriptive procedure that allows us to preview and describe literary material. To begin with, we will discuss the problem of the historiography of ancient Algerian literature based on a number of sayings, and then going into the factors that crystallize the ancient Algerian prose writing arts and their aesthetic expressive levels.

Keywords: Prose, Algerian literature, art, letter, trip, biography, makamat.

مقدّمة:

تعد فنون النثر الجزائري القديمة إرثا أدبيا زاخرا بالأشكال الأدبية، ألف فيها الجزائريون بعد الفتوحات الإسلامية. وهي تصلنا بتاريخنا القديم وتربطنا بأنساقه الثقافية. لها من الخصوصيات ما يجعلنا نتعرف على الحياة الاجتماعية للمجتمعات حينئذ، في مراحل مختلفة من تاريخها. كما نتعرف على قِيَمها، وعاداتها وتقاليدها، ونمط عيشها. وهو ما يمنح هذه المادة الأدبية هوية خاصة، بحيث لها القدرة على ملامسة وجدان القارئ ، والتأثير فيه، وإغناء معرفته بذاته وبهويته. لذلك تظل الفنون النثرية الجزائرية في حاجة إلى دراسات نقدية جادّة و وفقا لمناهج البحث المعاصرة، إذ لم تلق هذه الفنون الاهتمام اللائق بها من قبل الباحثين المعاصرين بحجة صعوبة الحصول على المادة الأدبية، رصدها وتجميعها، في مقابل انشغالهم بجنس الرواية التي أصبحت تختزل الفن النثري الجزائري في نوع فني واحد. مما غطى على إمكانية الالتفات إلى الأنواع الأخرى القديم منها و الحديث. حيث مورس عليها الإقصاء، فخرجت من دائرة الضوء لتتقوقع في العتمة، على الرغم من أنها تتيح للباحثين مقترحات كثيرة لتوسيع مجالات الاشتغال النقدي، فضلا على تنشيط البحث في التراث الثقافي المحلي ونشر ذخائره وتحقيق مخطوطاته مما سيؤثر إيجابا في الحياة الثقافية الجزائرية الحديثة.

إن تجنب الجاهز بخصوص الفنون النثرية الجزائرية، وكذا تجاوز المتفق حولها، هو ما يحركنا نحو بناء مشهد أدبي بالبحث عن ملامح الصورة كاملة في الأدب الجزائري لضمان تواصل الحلقات، لاسيما وأننا وجدنا أن الفراغ الذي تعاني منه الساحة الأدبية في الجزائر –إما بضياع المدونة الأدبية القديمة أو بإهمالها–هو الفضاء الأمثل لتواجد الباحث.

و قد قادنا الاهتمام بهذه الذّاكرة الثّقافية إلى الوقوف عند الفنون النّثرية الجزائرية القديمة بتعدّد أنواعها: الرّسائل و الرّحلات و السّير و المقامات و كتب التّراجم و الشّروح الشّعرية...

إذا سنعرض بعض الأشكال النثرية الجزائرية مع تحديد نوعها الأدبي وفضلنا أن تكون قديمة، مع التعريف بأصحابها مكتفين بالمحقق منها دون المخطوط. متبنين الإجراء الوصفي الّذي يتيح لنا معاينة المادّة الأدبية ووصفها.

إشكالية البحث:

شهدت منطقة شمال إفريقيا منذ القديم تلاقحا ثقافيا و تعدادا لغويا جعل مسألة الأدبية تعرف وضعا شائكا على المستوى الأدبي. و أصبحت هذه المسألة في الجزائر مطروحة بشكل قوي في شكل أسئلة عديدة نصوغها على النحو التالي: من أين نؤرّخ للأدب الجزائري؟ ما هي محدّدات هذا الأدب ؟ ما هو لسانه؟ طرحنا لهذه الإشكالات نراه مهمّا من حيث كون الإجابة عنه تحدّد لنا الإطار الزّمني الّذي سنتحرّك داخله، مما يقودنا نحو صياغة استفهام جديد يخص طبيعة المادّة الأدبية الّتي سنعالجها وهي الفن النّثري الجزائري القديم، بصفته الجنس الأدبي الأقدر على استيعاب مجموع التفاعلات الحضارية والتعبير عنها. إذن :فيم تتحدّد أشكال هذه الفنون ؟ ما هي مستوياتها التعبيرية و الجماليّة؟

أولا:التّأريخ للأدب الجزائري القديم:

بدءا نستند إلى القراءة التي قدمها الدكتور **"أبو القاسم سعد الله"** بخصوص وضع اللغة والأدب في الجزائر قديما وحديثا، حيث خلص إلى ما أسماه انعدام المركزية الثقافية التي لا حظ غيابها عبر العصور والتي أفرزت بحسبه ما أسماه بـ "التشرذم الثقافي،"[1] وهو وضع له ما يبرره تاريخيا. فما قبل الإسلام تميزت المرحلة التاريخية بالفوضى اللغوية أمام انعدام المركزية السياسية: لغة فينيقية، لغة لاتينية، لغة يونانية، عاميات بربرية... في هذا الصدد يشير **"سعد الله"** إلى أن الأمازيغ هم خير نموذج للأمم التي لم تسجل تاريخها، فهم قبائل عديدة ولكل قبيلة لهجتها، ولم يعرف عنهم أنهم توحدوا في دولة واحدة رغم ثوراتهم العديدة، "ومقاومتهم لكل سلطان،"[2]إلى حين قيام نوميديا(202ق.م-46ق.م) الذي جاء متأخرا نسبيا وكان معتمدا على خلق التوازن بين القوتين :(روما وقرطاج).

ومثلما لم يؤسس الأمازيغ دولة واحدة لم يستعملوا لغة موحدة، باستثناء العاميات التي ليست أداة لتدوين التاريخ، فتاريخ الأمازيغ كتبه في الغالب المصريون القدماء و اليونان والفينيقيون و الرومان والعرب والإسبان والفرنسيون...وظل الأمازيغ إلى غاية القرن السادس الميلادي بدون تراث مكتوب.

أمام هذا الوضع كتب أدباؤهم بلغة الدول المتسلطة عليهم. ومن ثم عُدّ البعض أدبهم أدبا لاتينيا أو إغريقيا يونانيا[3].

يضيف "**سعدالله**" أنه بعد الفتح الإسلامي ظل التشرذم قائما في ظل غياب مركزية سياسية،[4]كما حافظت اللهجات البربرية على وجودها إلى جانب اللغة العربية. أما أثناء الحكم العثماني فلم يفرض النظام التركي رغم مركزيته وتحديده لمعالم الجغرافيا الجزائرية لغة واحدة، حيث كانت التركية لغة الإدارة في الجهاز المركزي إلى جانب اللغة العربية واللهجات الأمازيغية التي حافظت على حيويتها.

ومع الاحتلال الفرنسي تعمق هذا التشرذم الثقافي. ثم مع استقلال الجزائر وإحلال المركزية السياسية لم يزل هذا التشرذم قائما نتيجة فرض اللغة الفرنسية في الإدارة والمعاملات الإدارية اليومية وانحصر تعليم اللغة العربية في المدارس.

نستند في تفعيل الاشكالات النقدية التي طرحناها إلى ما قدمه الأستاذ "**عبد المالك مرتاض**" في مقدمة كتابه :**الأدب الجزائري القديم – دراسة في الجذور**،[5]حيث وبعد تحليل علمي مستفيض نلفيه يعقد الصلة مابين التجارب الأولى للأدب الجزائري وبين قيام الدولة الرستمية. وتأسيسا على ذلك سننطلق نحن بدورنا من التأسيس للنثر الجزائري من هذه المرحلة من تاريخ الجزائر، وسنمتد نحو مراحل لاحقة.

ثانيا:أنواع النثر الجزائري القديم:

1–فن الرسالة:

لا أحد بإمكانه أن ينكر فضل تلك المؤثرات التي تلقّى المغرب العربي نسائمها بعد الفتح الإسلامي من المشرق، حيث تعمّقت صلة المشرق بالمغرب وأصبحت "تسري في تراثه الغني والمتنوع، بكل ملابساته الثقافية وأنماطه الفكرية."[6]وظل الفكر المغربي في رؤاه وتصوراته يمتح "من الموروث المشرقي الأصيل متفاعلا معه ومنفعلا به، متأثرا به ومؤثرا فيه. وإن انفتح على الثقافات

المستحدثة الوافدة. يتجلى ذلك –أكثر ما يتجلى– في العلوم الإسلامية والشرعية والنصوص الأدبية والنقدية والدراسات الفلسفية والكلامية."[7]

في ضوء هذه المتغيرات السياسية والثقافية المستجدة مغاربيا، مكنت الدولة الرستمية اللغة العربية من الانتشار وجلبت من المشرق الكتب إلى مكتبة تيهرت "المعصومة" حتى تغرس القوة الروحية للحركة الخارجية التي أساسها المشرق ."إن هذه الدولة بحكم خارجية مذهبها وقيام نزعتها على الجدال الشديد والحوار العنيف كانت مضطرة إلى اصطناع اللسان والعقل لإقناع الخصم الألداء، وطمأنة الأشياع الأحباء. ومثل هذا السلوك الفكري لا يجوز له أن ينفصل عن حركية الإبداع وتبلور الخصب الفكري."[8] الأمر الذي أسهم في تبلور عدد من الفنون النثرية كالخطابة والرسالة على وجه الخصوص.

ينبغي الاعتراف بأن ما وصلنا من مادة نثرية على هذا العهد قليل. وما يعثر عليه الباحث من رسائل مبثوثة في المصادر القديمة يدلّ على أن هذا النّوع من النّثر كان متداولا مألوفا، ومرد قلّة وصوله إلينا يعود إلى عدم توثيقه كما هو الشأن في البدايات الأولى لكل ما هو قديم.

المتمعن في طبيعة الرسائل على هذه المرحلة وما يليها زمنيا، سيلاحظ أن "العلاقات الرسائلية ليست علاقات أدبية فحسب، بل هي علاقات تبادل معرفي وتعدّد ثقافي في شتى مجالات الحياة الفردية والجماعية."[9] فضلا عن مستوى اللغة المشفّرة التي تكتب بها والتي تعكس قدرة المرسِل في التحكم في ناصية اللّغة وكذا قدرة المرسَل إليه في الوقوف على مضمرات هذه اللغة المكتوبة بها الرسالة.

ويرتبط الفن الترسلي على هذا العهد في أغلبه بحكام الدولة الرستمية أنفسهم. وإذا اقتربنا من العلاقات الرسائلية نجدها تعكس لونا من ألوان التمدن. مثلما تعكس قدرة العصر البلاغية. تمّ استثمارها في دعم المشروع الإيديولوجي الذي عليه نهضت الدولة الرستمية في تيهرت . مما يهيئنا إلى أن نعدّل نظرتنا إزاء الحياة الثقافية والفكرية للمجتمع الجزائري آنذاك.

وقد جمع لنا "سليمان الباروني" في كتابه:**"الأزهار الرياضية"** بعضا من النصوص الرسائلية التي صدرت غالبا عن أميرين اثنين هما: أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، وابنه محمد بن أفلح بن عبد الوهاب. هذه الرسائل تعدّ جزءا من التاريخ لأنّها تسرد تفاصيل تاريخية معينة.

2-فن المنامات :

يعد "**المنام الكبير** "لأبي عبدالله محمد بن محرز بن محمد الوهراني، الملقب بركن الدين، المولود في وهران في مستهل القرن السادس الهجري هو المصنف الأدبي الأشهر في الذاكرة السردية التراثية المحلية. ويتمثل إرث الوهراني الأدبي في مجموعة من النصوص النثرية كتبت في أشكال أدبية متنوعة : منامات ومقامات ورسائل وخطب، جمعها كتابه الموسوم ب: "منامات الوهراني ومقاماته ورسائله". نشر بدار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، سنة:1968. وراجعه الدكتور عبد العزيز الأهواني. حقق هذا المصنف كل من "إبراهيم شعلان "و"محمد نغش."

يوجد من منام الوهراني نسخة مخطوطة في مكتبة "أيا صوفيا،"وهي الأصل المعتمد عليه في عملية التحقيق، ونسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية. ونسخة ثالثة في مكتبة برنسون بأمريكا.

ولقد صنفت معظم الدراسات التي اهتمت بأدب الوهراني ضمن خانة الأدب الساخر، عاقدة العلاقة مابين شخصيته المرحة وبراعته في الهزل والتهكم على النحو الذي جاء مثبتا في كتب السير والتراجم،[10] وما بين الأساليب اللغوية التي برع فيها. وقد رأت معظم تلك الدراسات أن الوهراني نسج كتابه على منوال كتّاب المشرق، حيث تعالقت مقاماته جماليا بمقامات الهمذاني و مناماته برسالة الغفران لأبي العلاء المعري، ورسائله برسالة "التربيع والتدوير" للجاحظ. ورسالة "التوابع والزوابع" لإبن شهيد الأندلسي.

بإمكاننا تصنيف تجربة الوهراني المشبعة بالهزل على أنها تجربة وجودية انتصرت للمثقف المغربي بعد أن فرضت نفسها في فضاء المشرق. وعلى الرغم من أنها لم تكن تجربة فنية أصيلة لأنها استلهمت من تجارب فنية سبقتها زمنيا —كنا قد أشرنا إلى ذلك سلفا مع التذكير أن الأشكال السردية العربية لم تظهر ناضجة دفعة واحدة، بل اقترن ظهورها بالمستجدات وبروز وظائف سردية جديدة للفعل السردي – إلا أنها استطاعت أن تخلق لغة على لغة وأن تتزحزح من الهامش نحو المركز. أي من حلقات التكوين السردي إلى أعلى المستويات التعبيرية والرمزية. فتحولت بذلك إلى تجربة وجودية تضمر الكثير من الإخفاقات والكثير من الانتصارات وإن تمظهرت تحت غطاء هزلي. وهي لذلك جديرة بأن تكون حقلا للدراسات النقدية من منظور تناصي وسوسيولوجي جمالي.

3-فن الرحلات:

يعنى الأدب الرّحلي برصد الحياة الثقافية والاجتماعية للشعوب. وأصبح هذا النوع يستقطب العديد من المهتمين بحقل الأدب والنقد نظرا لثراء مادّته، تنوّعها وغناها. تعد أهم الرحلات لدى العرب المسلمين تلك التي قصد أصحابها البقاع المقدسة لأداء الركن الخامس من أركان الإسلام، ضف إلى ذلك الرحلات العلمية حيث كان من تقاليد المسلمين أخذ العلم من محاضنه للحصول على الإجازة من العلماء بعد مجالستهم وحصول الملكات بالتلقين مباشرة. نذكّر أن فضاءات الرحلة ومحطاتها كانت كثيرا ما تتيح التقاء المشايخ وطلاب العلم مشرقا ومغربا، مما وفّر فرصة هامّة لتعارف العلماء بعضهم ببعض.

من دواعي تدوين الرحلات الرغبة في تقديم الفائدة العلمية للقراء المتلقين من خلال الكم المعرفي الذي تختزنه المدونة الرحلية، التحديد الجغرافي لمسارات الرحلة، الوقوف عند الملامح الثقافية للمجتمعات وعاداتهم، رصد الأخبار التاريخية والسياسية والاقتصادية انطلاقا من فضاء المكان، الاستفادة من تجارب الآخرين، تدوين سير العلماء والمشايخ من خلال أسلوب الفهرسة، التعبير عن الذات ومكنوناتها والرغبة في المشاركة في أدب الرحلة على منوال المشارقة.

وقد تفوّق الرحالة المغاربة بما فيهم الرحالة الجزائريون في هذا النوع النثري، حيث شهد هذا الفن ازدهارا ملحوظا بداية من القرن الحادي عشر الميلادي. ربما مردّ هذا التميّز إلى طول المسافة بين بلاد المغرب وبلاد المشرق التي كانت في الغالب مقصد الرحلات المغربية، لذا فمسارات الكتابة هي الأخرى ستطول بالرحالة، مما يفسح المجال أمام الرحالة لتدوين مشاهداته وملاحظاته.

وتجدر الإشارة إلى أن ثراء المدونة الرحلية الجزائرية بما تحويه من منظوم ومنثور يظل مغريا للقراء، إذ تضع بين أيديهم مادة نثرية متنوعة من يوميات وسير و مقامات و سائل وأخبار ...

وقد لاحظنا أن النص الرحلي الجزائري القديم يتأسس على مرجعية عصر الكاتب وعلى الثقافة العربية الإسلامية عامة، ففي الغالب توخت النصوص التي طالعناها -والتي سيرد عرضها لاحقا- إلى تصنيف مختلف مجالات المعرفة انطلاقا من اهتمام كتابها بالفهرسة التي تجسدت عناصرها في: الأولياء ومراتبهن، الصوفية وطبقاتهم، الشيوخ والعلماء-الزوايا، الأحداث الماضية والحاضرة. فضلا عن ممارسة الكاتب للأسلوب السير ذاتي وما يدخل تحت بابه من كتابة المذكرات واليوميات.

من جانب آخر يعدّ هذا الفن أداة من أدوات التعامل مع المكان، حيث تتم محاورة المكان بصيغ مختلفة، ولا سيما أن الفضاء الجغرافي في الرحلات هو بؤرة مركزية للسرد. واختيار أماكن بعينها له ما يبرره جماليا فتعدد المزارات ومدافن الأولياء الصالحين والخوض في تعداد كراماتهم، كل ذلك يؤشر على التعالقات بين الرحالة ومحطات الطريق الرمزية وصولا إلى رحلة الحج، مما يعني أن تحديد الخارطة المكانية التي ترسم الرحلة حدودها متعلقة بالمحطات الرمزية. من ثم يصبح استناد الرحلة على المكون المكاني له مواصفات محددة."هي إذن عملية إنضاج لحظة الوصول إلى المحطة ما قبل الأخيرة مرورا برحلات صغرى تداخل فيها الديني بالدنيوي."[11]

من أهم الرحلات الجزائرية القديمة التي ينبغي التعرض إليها في هذا المقام رحلة المقْرِي ، وهي لصاحبها أبو العباس أحمد بن أحمد بن يحي بن عبد الرحمن بن أبي العيش بن محمد المقري التلمساني. المولود سنة: 986هـ في تلمسان و المتوفي في القاهرة سنة:1041هـ . يعدّ المقري من أبرز المؤرخين المسلمين، رحلته التي تعنينا موسومة بـ:"**رحلة المقري إلى المغرب والمشرق**". اعتنى بتحقيقها وضبطها حديثا محمد بن معمر. نشرت سنة: 2004 بمكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، سيدي بلعباس، الجزائر. الغرض منها أداء مناسك الحج. تعرض المقري في رحلته لمسائل فقهية، كما وصف الحياة الثقافية والعلمية للمجتمعات التي زارها. وقد ضمّت مدونته فهرسة لأسماء العديد من العلماء.

ثم تأتي رحلة المجاجي الحجازية لصاحبها عبد الرحمن بن محمد المجاجي من مجاجة (تقع بالقرب من مدينة تنس). ارتحل إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج سنة: 1063هـ وهو التاريخ الذي ذيل به رحلته. وبذلك يكون قد عاش في القرن الحادي عشر الهجري. فهرستها في المكتبة الوطنية حملت عنوان: "**رحلة إلى مكة.**" وهي منظومة على وزن البحر الطويل. مبتورة البداية أي مرحلة الذهاب، أما الجزء المتوفر فيمثّل مرحلة الإياب. رصدت رحلة المجاجي مسارات الطريق من الحج إلى الجزائر العاصمة مشاقها وأهوالها، مروره بالمزارات، ولقاءاته بالعلماء ومجالسته إياهم.

وتعد رحلة أبي راس الناصري لمحمد بن أحمد بن عبد القادر بن الناصر المعسكري المعروف بأبي راس. المولود سنة: 1150هـ قرب جبل كرطوس في مدينة سعيدة. من الرحلات الشهيرة، ألف أبو راس رحلته الجامعة لخدمة العلم والدين بأسلوب أدبي فني. زار في رحلته هذه الجزائر، قسنطينة، تونس، ثم القاهرة والحجاز. هناك التقى بالعديد من العلماء. سجل هذه

الرحلة في الباب الثالث من مدونته التي تسرد سيرته الذاتية: والموسومة ب:"**فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته.**"

من أشهر الرحلات الجزائرية رحلة ابن حمادوش الجزائري: وهي لعبد الرزاق بن محمد بن محمد الملقب بابن حمادوش ولد بمدينة الجزائر سنة 1107هـ. رحلته موسومة بـ:"**لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال.**" جزؤها الأول مفقود مما يعني أن تاريخ الشروع في كتابة المدونة مجهول. أما الجزء المتوفر منها دوّن فيه الرحالة رحلته إلى المغرب الأقصى بحرا. وهي من تحقيق أبي القاسم سعد الله.

وصف ابن حمادوش الأماكن الجغرافية التي ارتادها وصفا دقيقا، مركزا على عادات الجماعات فيها في المناسبات الدينية خاصة. تتقاطع على جسد هذه المدونة العديد من الأخبار السياسية، الاجتماعية والثقافية ...

وتعد الرحلة الورثلانية المعروفة بـ: "**نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار،**" لصاحبها الحسين بن محمد السعيد الورثلاني المولود سنة (1125 هـ-1193هـ) أكثر الرحلات ثراء وشهرة. خرج المخطوط إلى الطبع مع تعليقات بن مهنا القسنطيني سنة: (1321 هـ-1903 م) في تونس. بعدها بسنوات قليلة طبعت سنة (1326هـ-1908م) بمطبعة "بيير فونتانا" الشرقية في الجزائر تحت إشراف العلامة ابن أبي شنب. نفس الطبعة أعيد تصويرها وطبعت بدار الكتاب ببيروت لبنان سنة (1394هـ-1974م) .[12]

يتخلل مسار السرد في الرحلة الوثلانية أسلوب الكرامات والذي يتداخل في الكثير من الأحيان بالحقل الديني المجسّد في الأضرحة والمزارات والزوايا وفضاءات المساجد وروابط الصوفية، "وهو أسلوب لا يكتفي فيه الرحالة بتقديم الكرامات والخوارق، بل يتبنى الكرامة ذاتها شكلا ومضمونا إلى الحد الذي يصعب فيه التمييز بين أسلوب الرحالة وأسلوب الكرامة المنقول عن الآخر سردا وعرضا."[13]

إلى غير ذلك من التنويعات السردية ما بين مسرود السماع وبين مسرود الرؤية العيانية، بين المحكي العجائبي وبين المحكي الواقعي، بين محكي السارد ومحكي الشخصيات.

4- فن السيرة الذاتية:

يعتبر كتاب "**فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربه ونعمته**،"للعلامة أبي راس الناصري المعسكري الجزائري من الكتب التراثية الهامة، التي يمكن أن تندرج ضمن فن السيرة الذاتية، وقد كان قدوته في هذا التأليف الحافظ جلال الدين السيوطي، في كتابه "**نزول الرحمة في التحدث بالنعمة**، "هذا بالإضافة إلى أعلام آخرين جعلهم أبو رأس أسلافا له في هذا التأليف، منهم عبد الوهاب بن علي السبكي تاج الدين، صاحب "**جمع الجوامع** ."

هذا الكتاب السيري المقسم إلى أبواب خمسة من تحقيق محمد بن عبد الكريم الجزائري، وطبع المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986، يعتبر مرجعا ثقافيا وموروثا أدبيا مهما للباحثين والمختصين في دراسة التراث العربي الإسلامي في أواخر العهد العثماني فضلا على احتوائه على الكثير من المسائل الشرعية، واللغوية، وآراء العلماء المختلف فيها.

كما أنه يضم بعض التراجم للكثير من أعلام ذلك العهد. كما يخبرنا بحياة الطلبة بالمغرب الأوسط، والمناظرات العلمية والفقهية التي كانت تدور بين الشيخ وبين علماء عصره، في مختلف الأقطار التي زارها.

5- فن التراجم :

تعد التراجم إحدى الفنون النثرية التي تستقي مادتها من التاريخ والمواقف الإنسانية، وتجارب البشر. وقد عرفت الأمم القديمة هذا اللون من الأدب لأنها حفلت بتسجيل مآثر أبطالها وأعيانها. وتم تقييد هذه المآثر والبطولات في أشكال مختلفة كتابيا في المعابد وعلى الصخور والحجارة و المعادن المختلفة وشفويا تناقلته الذاكرة الجماعية في المجالس والأحاديث.

و قد كانت الحاجة إلى العناية بالأعلام ماسة في صدر الدعوة الإسلامية. وكان أكثرها أهمية سيرة الرسول صلى الله عليه و سلم، ثم أعلام الصحابة والتابعين و رجال الحديث والرواة. ووضعت لذلك كتب في السيرة و الطبقات. ثم أفاض الكتاب في تراجم الأعلام من الصحابة والتابعين و العلماء والأدباء و لم يتركوا أهل فنّ أو علم إلا ترجموا لهم و عرّفوا بهم وربما قيّدوهم في مجموعات عرفت فيما بعد بالطبقات حتى شملت التراجم خاصة الناس وعامتهم.

وقد عرفت الجزائر في القرن الثامن الهجري حركة تأليف واسعة النطاق، شملت مختلف أنواع العلوم المعروفة آنذاك؛ التي كانت تدرس في مساجد تلمسان والجزائر وبجاية وقسنطينة وبونة. ويعد كتاب الوفيات لابي العباس أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب الشهير بابن قنفذ

القسنطيني (740هـ-810 هـ) من تحقيق: عادل نويهض، (ط4)، بيروت، دار الآفاق الجديدة، 1983، معجم زمني لوفيات الصحابة وأعلام المحدثين والفقهاء والمؤلفين. واستهلّه بوفاة الرسول محمد -عليه الصلاة والسلام- إلى أن وصل إلى سنة(807هـ.)

أما مصنّف أبي العباس أحمد الغبريني، الموسوم ب: عنوان الدراية فيمن عرف من المائة السابعة في بجاية، تحقيق: عادل نويهض، بيروت، دار النشر، الطبعة الثانية، أفريل 1969. من أهم المصادر التاريخية يختص برصد ملامح الحياة العلمية والثقافية لمدينة بجاية في القرن السابع الهجري. ترجم فيه صاحبه لعدد من المؤرخين والعلماء من الجزائر وتونس والمغرب والأندلس. و قد نشر الكتاب لأول مرة سنة (1910م) برعاية العالم الجليل محمد بن شنب.

6-فن الشروح الشعرية :

تمثل الشروح الشعرية ظاهرة متميزة في الثقافة العربية الإسلامية، فما كان يظهر مصنف إلا ويتصدى العلماء لشرحه والتعليق عليه، وذلك لارتباطه بالغاية التعليمية التي يرمي من خلالها الشارح إلى تبسيط المادة التعليمية للمتعلم، وإزالة عوائق استيعابها. والعناية بضبط القواعد وتأصيل المفاهيم وحسن العرض والقدرة على الإبلاغ والإفهام والإحاطة بكل ما يتعلق بالنص من لغة ونحو وبلاغة ونقد.

رسم المغاربة والأندلسيون للشروح الشعرية اتجاها متميزا، إذ جعلوا من هذا النوع النثري حقلا لنشاطهم التأليفي، حتى أصبحت هذه الظاهرة أمرا لافتا في منتوجهم الأدبي والنقدي.

واذا كانت الشروح في تراثنا الأدبي المغاربي من الثراء الذي يصعب الإلمام به، فقد فضلنا التوقف عند تجربة أبي راس الناصري في شرحه لقصيدة "**العقيقة**" التي ألفها أبو عثمان سعيد بن عبد الله المنداسي التلمساني- الذي عاش في القرن 11الهجري- في مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) و الصحابة و الأنصار و البقاع المقدسة. وهي من الشعر الملحون، إلا أنها تجري مجرى تقاليد القصيدة الفصيحة في بنائها إلى أجزاء. وفي أساليبها المنحوتة من القصائد الطللية القديمة في تصوير مشاعر الشوق و الحنين إلى الديار المقدسة. ولذلك فهي تنافس في جمالياتها أرقى جماليات القصائد الحجازية الفصيحة. فضلا على أنها أثرت مدرسة الشعر الملحون تأثيرا إيجابيا، حيث دفعت بها إلى التطور بعدما كانت في مرحلة الركود.

إن أبا راس الناصري بتأليفه لكتاب" **الدُّرة الأنيقة في شرح العقيقة**" تصدى لشرح قصيدة المنداسي، ومن خلال هذا الشرح أراد أبو رأس الناصري أن يؤكد أن هذه القصيدة على الرغم من أنها من الشعر الملحون إلا أنها راقية تشبه القصائد الحجازية الفصيحة. و أن الأدب الجزائري عريق. وجذوره متأصلة، وعلى الدارسين البحث في هذا الموروث الأدبي العظيم، و عدم طمسه و تضييعه بفعل النسيان.

شرح علي ابن ثابت القرشي (829هـ): ولن نبرح عنصر فن الشروح الشعرية دون الاشارة إلى قصيدة "البردة" للبصيري والآثار الأدبية التي انتعشت بفضل هذه القصيدة المشهورة. والتي أدت دورا تثقيفيا يعكس البعد الروحي الذي أسهم في استمرار تلقيها، بفعل بعدها الرمزي الذي أفرزته حاجات المتلقين ورغبتهم في كل ما هو روحي خفي، واعتقادهم في قوته ومفعوله الباطني.

لقد اتسع مجال شرج البردة في المغرب والجزائر وتنوعت أغراضه وتشعبت اتجاهاته وتمخض عن إسهامات هامة في هذا الحقل، حيث مجال البحث فيه يظل بكرا وثريا ينتظر من يفعله تلقيا وقراءة.

وفي إطار التأريخ لحركة شروح البردة في المغرب، سنقتصر على رصد عينات من الشروح الجزائرية التي تعد إسهاما لطبيعة الأعلام الذين اضطلعوا بها. وفي الحقيقة أنه لم يصل إلينا من هذه الشروح كاملا إلا القليل .

-شرح ابن مرزوق التلمساني (الجد) (710-781هـ).

-شرح سعيد العقباني التلمساني:(720-811هـ).

-شرح ابن مقلاش الوهراني.

خاتمة:

بعد الطرح المنهجي الذي عرضناه في إطار ما ألزمنا به أنفسنا من إشكالات، لاحظنا أن كتب التاريخ التي أرخت للمغرب والأندلس تكتنز في متونها العديد من الفنون الأدبية الشعرية والنثرية الجزائرية في تعددها وتنوعها. وعملية رصدها وجمعها تتطلب جهودا مضاعفة. كما وقفنا على الدور الريادي للكتابة النثرية الجزائرية القديمة في الحياة السياسية و الثقافية في الجزائر على مراحل زمنية متعاقبة.

وتشكل فنون النثر الجزائري القديمة بجميع أشكالها من رسائل ورحلات وسير ومقامات وتراجم ...مظهرا من مظاهر التشكيل الجمالي الأدبي. فهي لغة أدبية مقصدها التأثير في النفس، لأنها تنبثق من تراكم التجارب الإنسانية. وهي نتيجة لتفاعل الكتّاب مع نسقهم التاريخي والاجتماعي، تستجيب لحاجات نفسية واجتماعية وفنية. ونظرا للأهمية التي تكتسبها هذه الفنون النثرية، رأينا ضرورة لفت انتباه الدارسين إلى هذا الحقل الأدبي البكر وعرض أشكاله التعبيرية الفنية المختلفة. وجعلنا ذلك غايتنا ومقصدنا من هذه الدراسة، لعلّ ذلك يشكّل مقترحا نقديا للدّارسين مستقبلا لتفعيل المعطيات الشكلية والأسلوبية والدلالية والثقافية للنثر الجزائري القديم في البحوث العلمية و الندوات الثّقافية.

إن فنون النثر الجزائري القديمة تغتني بأشكال تعبيرية كثيرة، وتضع بين يدي متلقيها ثراء في الأشكال والمضامين، لذلك فهي في حاجة إلى باحث جادّ ينفض الغبار عن تراث أدبي ضخم يتكتم على التاريخي والسياسي والاجتماعي في لبوس أدبي جمالي. في ضوء ما حملته المناهج النقدية واللسانية المعاصرة من آليات وإجراءات تحليلية قرائية. قصد طرح إشكالية تجنيس هذه الفنون وتقديمها بشكل مختلف تتكشف في ضوئه المستويات الجمالية لهذه الفنون الكتابية.

في الأخير ينبغي التنويه بأن هذه الدراسة لم تحصي جميع فنون القول النثرية الجزائرية القديمة ولا جميع الأعلام والمصنفات ،مما يفسح المجال أمام باحثين جدد لتفتيح أفق البحث حول الأدب الجزائري القديم شعره ونثره جمعا واحصاء وتحقيقا وتصنيفا ومعالجة.

هوامش:

[1] سعد الله، أبو القاسم، آراء وأبحاث في تاريخ الجزائر، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان،1996، ج:4، ص8.

[2] المرجع السّابق، ص8

[3] - أقدم نص روائي لأبيلي" Apulee لوكيوس أبوليوس. " ولد في القرن الثاني حوالي 125-170.م بمدينة مداوروش قرب سوق أهراس، من أهم مؤلفاته: الحمار الذهبي أو التقمصات إلى جانب ديوانه "الأزاهير".ويعتبر مؤلفه" الحمار الذهبي" أول بادرة في كتابة الرواية العالمية. هذه الرواية على الرغم من إقرار الغرب بانتمائها الأمازيغي، يوردها محمد غنيمي هلال في كتابه "الأدب المقارن" دون ضبط الاسم الكامل لصاحبها وينعتها بأنها رواية لاتينية "لها أصل يوناني مجهول المؤلف.

[4] سعد الله، أبو القاسم، آراء وأبحاث في تاريخ الجزائر، ج:4، ص.9.

[5]ينظر: مرتاض، عبد المالك، الأدب الجزائري القديم – دراسة في الجذور، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2009. مقدّمة الكتاب.

[6]المؤدب، محمد الأمين، حوار المشرق والمغرب وجدلية الأصل والفرع – قراءة في تراثنا البلاغي القديم. ضمن: البلاغة والخطاب، إعداد وتنسيق: مشبال–محمد، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2014، ص 35.

[7]المرجع السّابق، ص35.

[8]مرتاض، عبد المالك، الأدب الجزائري القديم، ص43.

[9]المرجع السّابق، ص43.

[10]ينظر : ابن خلكان، القاضي، وفيات الأعيان و أنباء الزمان، تحقيق: عباس–إحسان، مكتبة النهضة المصرية. القاهرة،1948،ج:4، ص385 -386.

[11]صحراوي، إبراهيم، السرد العربي القديم، الأنواع والوظائف والبنيات، (ط.1)، منشورات الاختلاف – الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر،2008، ص47.

[12]الورثلاني، الحسين بن محمد، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، المجلد الأول، تعليق: ابن مهنا القسنطيني، تقديم: محفوظ بوكراع وَ عمار بسطة، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص.11.

[13] مؤدن، عبد الرحيم، الرحلة في الأدب المغربي، النص –النوع –السياق، أفريقيا الشرق، المغرب، 2006. ص31.